

اعقب شيلمنصر الخامس في الحكم الملك الشهير سرجون الثاني الذي دام حكمه ثمانية عشرة سنة (٧٢١ - ٧٠٥ ق. م) ولانعرف بالضبط علاقة سرجون بالملك السابق له ولعله كان غاصباً للعرش ، غير انه اسس سلالة جديدة دام عهدها حتى نهاية العهد الآشورى الحديث وتوالي على حكمها من بعده ثلاثة من اعاظم الملوك الآشوريين هم سنحاريب واسر حدون وآشور بانيبال وتميز عهد السلالة السرجونية بالازدهار الحضارى الذى وصلت اليه بلاد آشور واتساع رقعة الامبراطورية بحيث ضمت تحت سلطانها مصر لأول مرة كما تميزت هذه الفترة بكثرة الآثار المعمارية والفنية والمادية الأخرى التي خلفتها لنا ، فاضافة الى الآثار العمരانية الرائعة في كل من مدينة نينوى ودور - شروكين (خرصاد) وكلخو ، تم العثور على عشرات الالاف من النصوص المسماوية ذات المواضيع المختلفة وعلى مئات من المنحوتات الآشورية والتماثيل الرائعة التي تحكي لنا قصة الآشوريين وعلاقتهم مع البلدان الأخرى .

وكان اعتلاء سرجون العرش الآشورى فرصة استغلته بعض الاقاليم والمقاطعات النائية لنبذ السيادة الآشورية والعمل ضد الحكم الآشورى ، كما استغلت ذلك بعض البلدان المجاورة التي هددت بلاد آشور مصالحها التجارية كـ صحراء « اوواراطو » وعيلام والدوبلات السورية وبابل وكان على سرجون ان

يعلم جاهدا لا عادة سيطرة الدولة الآشورية على اقاليمها التابعة . وكانت اولى حملاته على بلاد بابل حيث ثارت القبائل الكلدانية وخلعت الملك البابلي الموالي للدولة الآشورية ونصبت بدلا عنه زعيم الكلدانيين «مردوخ-ابلا-ادينا» وتحالفت مع بلاد عيلام . غير ان حملة سرجون الاولى على بلاد بابل لم تكن حاسمة وغادر الجيش الآشوري ادراجه الى بلاد آشور ومنها الى سوريا . وبعد ان تم له القضاء على التمردات التي وقعت في بلاد سوريا ، عاد الى بابل ثانية ودخل المدن البابلية ولقي الآشوريون الترحيب من سكان بلاد بابل المحليين ونصب سرجون نفسه «نائبا للآله » في بابل وظلت بابل بعد ذلك موالية للدولة الآشورية حتى نهاية حكم سرجون .

كما قام الجيش الآشوري بحملة على بلاد سوريا اخضع خلالها جميع المدن المتمردة كمدينة حماة وغزة والسامرة ووضعت تحت الحكم الآشوري المباشر . اما في الشمال والشمال الشرقي ، فقد جهز سرجون حملة كبيرة الى بلاد «اورارطو» للقضاء على الخطر الذي كان يهدد كيان الدولة الآشورية باستمرار وحقق انتصارات رائعة بالرغم من الظروف الصعبة التي واجهت الجيش الآشوري وهو يجتاز المنطقة الجبلية . وقد عرفت هذه الحملة الشهيرة بحملة سرجون الثامنة وكان من نتائجها ان سيطر الجيش الآشوري على جميع المنطقة الجبلية ووصل الى شمال بحيرة وان وعاد بعثاثم واسلاب كثيرة وكان من نتائجها ان دخل الرعب في نفوس الاقوام من قوة الدولة الآشورية فاستقر الوضع فيها لمدة تزيد على عشرين سنة .

وفي حدود عام 710 ق . م ، كانت الدولة الآشورية قد سيطرت تماما على جميع اقاليمها ومقاطعاتها واحتضنت بلاد سوريا وازالت دويلة اسرائيل من الوجود . وقضت على التمردات في الجنوب وسيطرت على المنطقة الجبلية سيطرة تامة .

ويعتبر بناء مدينة سرجون الجديدة دور - شروكين (خرسناد حاليا) من اهم الاعمال العمرانية التي قام بها سرجون ، وقد استمر العمل فيها لمدة تسع

سنوات وانتقل اليها سرجون عام ٧٠٦ ق . م اى قبيل وفاته ولم يكتب للعاصمة الجديدة الشهيرة والازدهار كقية العاوصم الآشورية ، حيث هجرت في السنة التالية من بعد موته سرجون ونقلت بعض منحواتها إلى نينوى ولم يرتفع شأنها إلا في العصور الحديثة عندما تم الكشف في انقاذهما على المنحوتات الآشورية الراوغة والقصور الضخمة والتماثيل الكبيرة .

وعندما تولى سنحاريب العرش الآشوري (٧٠٤ - ٦٨١ ق . م) كانت الامبراطورية الآشورية تنعم باستقرار نسبي في مختلف الجبهات ولا سيما المنطقة الجبلية ، فكان عهد سنحاريب عهد رخاء اقتصادي وازدهار حضاري تمثل بقيامه بتعمير المدن الآشورية المختلفة واقامة القصور والمعابد وتشييد الاسوار الضخمة وجلب المياه من مناطق بعيدة من خلال شبكة من القنوات . وقد احتلت مدينة نينوى العاصمة المركز الاول في اهتمام الملك سنحاريب فأعيد بناؤها بعد توسيع قصورها ومعابدها واسوارها وظلت نينوى بعد ذلك عاصمة للدولة الآشورية حتى نهاية الآشوريين السياسيين .

وقد شغل سنحاريب معظم سني حكمه بحل مشكلتين رئيسيتين ، الاولى هي المشكلة البابلية والثانية اضطرابات وتمرد المدن والدوليات الحورية . وبعد سنتين من توليه الحكم ؛ ثارت القبائل الكلداذية ضد الملك البابلي واقتصرت عن الحكم ونصبت زعيمها ملكا على بلاد يعاونها في ذلك بلاد عيلام . وقد قام سنحاريب بتجهيز حملة على بلاد بابل قضى فيها على التمرد ؛ غير ان الكلدانين عادوا اوثاروا ثانية فجهز عليهم حملة ثانية . وللحمرة الثالثة استمرت بلاد عيلام تحضر القبائل الكلداذية وتقدم لها المساعدة العسكرية مما اضطر سنحاريب إلى القيام بالهجوم المباشر على بلاد عيلام برا وبحرا بعد ان جهز اسطولا من السفن وقضى على بلاد عيلام قضاء مبرما . بعد ذلك وجّه سنحاريب جيشه الى بابل وحاصرها ودمرها تدميرا كاماً وذلك عام ٦٨٩ ق . م . وبعد ان فشلت محاولاته الاولى في اتباع

سياسة اللين والترضية مع السكان المحليين اعلن نفسه ملكا على بلاد بابل وقضى على المشكلة البابلية قضاءاما .

وفي الغرب كانت دويلة يهودا ، بمساعدة مصر ، تحرض المدن والدوليات السورية على الثورة ضد الحكم الآشوري فتام الجيش الآشوري بمناجمة المدن السورية الواحدة بعد الاخرى واقصى حكامها المحليين وهزم القواة المصرية التي جاءت لمساعدتها وحاصر مدينة اورشليم عاصمة يهودا حتى استسلمت ودفعت له الجزية المقررة عليها ، وربما خطط سنهاريب لغزو مصر حيث انه وصل بقواته الى موقع العريش او رفع ثم عدل عن ذلك لاسباب غير معروفة .

انتهى عهد سنهاريب باغتياله عام ٦٨١ق . م من قبل احد ابنائه وتولي الحكم من بعده ولی عهده اسر حدون . الذي حكم حتى عام ٦٦٩ق . م .

وكانت السياسة التي اتبعها اسر حدون في ادارة الاقاليم النابعة والقضاء على الثوار والتمردات فيها تختلف عن سياسة ابيه سنهاريب اختلافا جوهريا ولعله افاد من ممارسته الفعلية كحاكم على بلاد بابل في عهد ابيه . فكان حله للمشكلة البابلية باسلوب يختلف عن اسلوب ابيه . فبعد ان قضى على الفتنة الداخلية الناشئة عن تمرد الجيش الآشوري بعد اغتيال والده . وجّه اهتمامه لحل المشكلة البابلية واتبع في ذلك سياسة اللين وترضية السكان المحليين واعادة بناء مدينة بابل وقصورها ومعابدها والاعتماد على علاقاته الشخصية مع بعض البابليين . ويبدو ان سياسته هذه لاقت قبولا واستحسانا من البابليين الى درجة انه اتخذ بابل قاعدة لهجومه على ایران كما لم تلق محاولات عيالام لاثارة الاضطراب ای صدى عند البابليين .

ثم وجّه اسر حدون اهتمامه لاعادة سلطة الآشوريين على الاقاليم الواقعة في الشمال والشمال الشرقي . وكانت قد توغلت في المنطقة قبائل جديدة من السكثيين والكمريين فاتفاق اسر حدون مع الامراء الميدانيين للوقوف ضد هذه الاقوام وعقد معهم المعاهدات ويبدو ان سياسته العامة كانت تجتمع الى السلم وعقد المعاهدات حتى وان كان ذلك على حساب فقدان بعض المقاطعات النائية .

واخيرا ، فان نشاط اسرحدون الرئيس كان في العجهة الغربية فكما شعر ستحاريب بان القضاء على المشكلة البابلية لا يتم الا بالقضاء على بلاد عيام كذلك شعر اسرحدون بان القضاء على الفتنة والاضطرابات في المدن والدواليات السورية لا يتم الا بالقضاء على مصر التي كانت تحرضها دوما للثورة والعصيان ضد الآشوريين .

ولضمان مشروعه في غزو مصر ، بعد ان قضى على تمرد ملك صيدا ، عقد المعاهدات واقام العلاقات الطيبة مع زعماء القبائل العربية في بوادي الشام وسيناء على الطريق المؤدى الى مصر ، وبذلك حكم سيطرته الكاملة على بلاد سوريا وفلسطين وبasher بعد ذلك بمشروعه الكبير لغزو مصر . ولم تلق الحملة الاولى التي قامت عام ٦٧٥ ق . م نجاحا لاسباب تتعلق بسوء الاحوال الجوية ، فعاد الجيش الكرة عام ٦٧١ ق . م . وامكن فتح عاصمة مصر السفلى بينما هرب الملك الحبشي طهراقا الى طيبة واعلن اسرحدون نفسه ملكا على بلاد مصر العليا والسفلى والحبشه وان الاحداث التالية تشير الى ان الجيش الآشوري لم يسيطر الا على الجزء الشمالي من مصر حيث عاد طهراقا ثانية والب الحكام المحليين في مصر السفلى ضد الحكم الآشوري ، واستوجب ذلك تجهيز حملة آشورية ثالثة عام ٦٦٩ ق . م غير ان مرض اسرحدون ووفاته حالت دون اكمال مشروع الحملة .

ونظرا للظروف الصعبة التي رافقت اعتلاء اسرحدون العرش بعد اغتيال والده ، فقد احتاط اسرحدون لهذا الامر واعلن ، قبل وفاته بثلاث سنوات ، عن ولاية العهد . وكان لاسرحدون ستة ابناء توفي اكبرهم في سن مبكرة وكان الابناء المرشحين لولاية العهد هما شمش - شم - اوكن وآشور بانيبال وربما كانوا توأمين وقد اعلن في احتفال كبير حضره الامراء والقواد والسفراء والممثلون عن الاقاليم والمقاطعات بان الآلهة قد وافقت على تسمية اشور بانيبال ولها للعهد على عرش آشور وتسمية أخيه شمش - شم - اوكن ولها للعهد على عرش بابل وطلب من

المجتمعين ان يقسموا يمين الولاء ويعترفوا بالترتيبات المتخذة بهذا الشأن وقد عثر على نسخة من المعاهدة التي عقدوها اسرحدون مع الحكام التابعين والامراء الميليين بهذا الخصوص . وبعد وفاة اسرحدون وضعت الاتفاقية التي وضعها موضع التنفيذ بهذه وعین آشور بانيبال ملكا على بلاد آشور بينما عين اخوه ملكا على بلاد بابل (١) .

ورث آشور بانيبال عن أبيه امبراطورية واسعة الارجاء وكان عليه ان ينفذ الخطط التي وضعها والده في غزو مصر والقضاء على ملوكها طهراقا ، فاستنصر المقاطعات والاقاليم التابعة وطلب منها تزويده بالجندي ، ودخل مصر بجيش قوى . وانهزم طهراقا ثانية الى طيبة عاصمة الجنوب فاستمر الجيش الآشوري بالزحف حتى وصل طيبة . ونظرا لاستمرار حكام الاقاليم الجنوبية في مصر على العصيان بتحريض الاقاليم الشمالية . فقد زحف الجيش الآشوري عام ٦٦٣ ق . م نحو طيبة ثانية وفتحها ودمرها ونهبها . واتبع الآشوريون سياسة تعين احد الامراء المحليين حاكما على مصر بعد اعترافه بالسيادة الآشورية واعشاره بقوة الآشوريين عن طريق اخذه الى فينتوى وتحميته بالهدايا - فعين نيخو حاكما على مصر السفلى وعند وفاته عين ابنه بسماتيك بانيالا عنه . وكان بسماتيك في بداية عهده مواليآ للآشوريين غير ان ارتفاع مركزه وسيطرته على مصر السفلى قد دفعه للاتفاق مع بعض الجنود المرتزقة من بلاد الاغريق وآسيا الصغرى إلى طرد الحاميات العسكرية الآشورية الموضوعة في مصر . وقد تم له ذلك فعلا في الفترتين ما بين ٦٥٨ و ٦٥١ ق . م ولم تتخذ الدولة الآشورية اجراءات فورية كعادتها لاعادة الحاميات العسكرية الى مصر بل يبدو ان الجيش الآشوري انسحب بهذه من

(١) حول ترجمة هذه المعاهدة الى العربية والانكليزية انظر : وليد محمد صالح ، العلاقات السياسية للدولة الآشورية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٧٦ ، صفحة ١٤٩ وما بعدها .

Wisemann The Vassal Treaties of Esarhaddon, Iraq , xx, (1955)

مصر بعد ان ظلت مصر تحت الحكم الآشوري لمدة خمس عشرة سنة وتغفل الاخبار الآشورية ذكر هذا الانسحاب وذكر الخسائر التي تكبدها الآشوريون خلاله . وربما كان من اسباب الانسحاب من مصر عدم استطاعة السيطرة على مصر لاختلاف صيغتها وتسللها ونظمها ولسعتها وبعدها عن مركز الامبراطورية ، اضافة الى ذلك ، فان الهدف الاساس من غزو مصر لم يكن لاستغلال مصر بل لمنعها من التدخل في شؤون المدن والدوليات السورية التابعة للحكم الآشوري .

اما في الجبهة الشمالية ، فقد كان انشغال الجيش الآشوري في غزو مصر سببا من اسباب ضعف السيطرة الآشورية على الجبهة الشمالية ، ففسح المجال امام الاقوام الجبلية للاستقلال عن النفوذ الآشوري وقامت الاقوام السكثية والكميرية في آسيا الصغرى «أورار طو» بقطع الطرق التجارية الآشورية واضافة الى ذلك كانت قوة الميدين في تعاظم مستمر بينما كانت مملكة ليديا في الشمال الغربي تسعى للتعاون مع آشور غير ان مصالحها التجارية كانت مهددة بقوة الآشوريين مما اضطرها الى تغيير سياستها اخيرا ومساعدة بسماتيك ملك مصر ضد الآشوريين

اما في بلاد بابل، فكان «شميش - شم - اوكن» قد تولى العرش البابلي حسب الترتيبات التي وضعها والده . وكانت الامر تسير بهدوء أول الامر ولكن ما لبثت ان بدأت المنافسة بين الاخرين ، وكان العيلاميون والكلدانيون يحاولون جاهدين اشعال نار الفتنة بين الاخرين ، فتوترت العلاقات بين بابل وآشور ، فقام آشور بانيال بتجهيز حملة على بلاد عيلام ففتح خلالها عاصمتها سوسا ومدنها المهمة ونصب احد افراد اسرتها الحاكمة ملكا عليها فأثار ذلك العيلاميين وزاد في محاولاتهم لاشعال نار الحرب بين بابل وآشور . وقام «شمسي - شم اوكن» بالاتفاق مع ملك عيلام ومع القبائل الكلدانية وبعض القبائل العربية وربما ضمن تأييد ملك مصر وبعض حكام المدن السورية وعقد حلفا عسكريا معهم ، غير ان آشور بانيال سارع بتجهيز حملة على بلاد بابل ونشبت الحرب بين الاخرين واستمرت لمدة

ثلاث سنوات انتهت باستسلام بابل وانتهار أخيه . أما بالنسبة لبلاد عيلام ، فكانت الفتنة الداخلية قد انهكت قوتها فدخلها الجيش الآشوري بين عامي ٦٤٢ و ٦٣٨ ق . م ودمر جميع مدنها وفتح سوسا ثانية وحملت الهاشمة إلى بلاد آشور ، ونصب أحد الامراء ملكاً عليها ظل موالي للسلطة الآشورية حتى نهاية الدولة الآشورية .

وعلى الرغم من الانتصارات الكثيرة التي حققها آشور بانيايال في قضائه على ثورة بلاد بابل وملكة عيلام ودحره القوات التي ساعدت أخيه في تمرده ، الا ان الغموض يكتنف الفترة اللاحقة لذلك وحتى نهاية عهده في ٦٢٦ ق . م . حيث تتوقف حوليات الملك الآشوري نفسه منذ عام ٦٣٩ ق . م ولا سبيل لمعرفة تفاصيل الاحداث الامن مصادر ثانوية ، وقد تكون اسباب هذا الغموض حدوث بعض المؤامرات الداخلية واضطهاد الوضع داخل بلاد آشور وتفاقم خطر الاقوام الجبلية في الشمال والشمال الشرقي من بلاد آشور .

سقوط الدولة الآشورية

وصلت الدولة الآشورية في عهد السلالة السرجونية الى اقصى ما وصلت اليه خلال تاريخها الطويل من حيث اتساع رقعتها وقوتها العسكرية وازدهارها الحضاري ، وقد يكون من اسباب تدهورها وسقوطها المفاجيء في اواخر القرن السابع قبل الميلاد هو امتداد رقعتها الى بلدان بعيدة جداً عن مركز بلاد آشور وانشغال معظم قواتها العسكرية في تثبيت الحكم الآشوري في مصر . كما كان المحملات العسكرية الكثيرة التي قام بها ملوك السلالة السرجونية على مختلف الجبهات وتعطيل اعداد كبيرة من القوى العاملة اثره في خلق الازمات الاقتصادية واثارة الاضطرابات الناجمة التي عممت البلاد في اواخر عه德 آشور بانيايال . ولابد انه كان هناك اسباب اخرى كثيرة لانهيار الدولة الآشورية اضافة الى ضغوط الاقوام الجبلية وتعاظم قوة الکرميين والسكبيين والميديين والكلدانين ومحاولتها

جميعاً القضاء على الدولة الآشورية والنفوذ الآشوري.

وتشير الاخبار القليلة التي وصلتنا من او اخر عهد آشور بانيايال الى ان الملك توفي عام ٦٢٦ أو ٦٢٧ ق.م في ظروف غامضة واعتلى العرش الآشوري من بعده ابنه آشور - اطل - ايلاني ، غير ان الاخبار المتوفرة عن حكم هذا الملك غاية في الاضطراب والتعقيد والتناقض مما يشير الى الاضطراب العام الذي عم بلاد آشور في الداخل . وقد ظهر في هذه الفترة زعيم كلداني جديد هو نبو بلاصر تمكّن من السيطرة على بلاد بابل ونصب نفسه ملكاً عليها وذلك عام ٦٢٦ ق.م وبدأ بعد العدة للهجوم على بلاد آشور نفسها فتحالف مع الاقوام الميدية في عهد ملوكها «كي اخسار» واتفق معه على شن الهجوم على بلاد آشور . اما آشور ، فقد اضطرت ازاء هذا الخطر الجديد "إلى ان تطاب المساعدة من حليفها مصر ، وكانت مصالح مصر التجارية والسياسية تقتضي تقديم المساعدة الى الآشوريين وضمان السيطرة على بلاد سوريا .

وكان أول ضربه وجهها نبو بلاصر الى بلاد آشور انه طرد الحاميات العسكرية الآشورية من بلاد بابل واتجه بقواته على طول نهر الفرات الى المناطق الارامية غير ان تقام الجيش الآشوري اضطره للانسحاب ليقوم بهجوم على مدينة آشور عام ٦١٥ ق.م ولكنه انسحب ثانية ولم يتمكن من فتح مدينة آشور الا بعد ان اتفق مع الميدين ل القيام بهجوم مشترك كاسح على بلاد آشور فتحت خلاله مدينة آشور عام ٦١٤ ق.م . ومدينة تربیص القريبة من نينوى واحيراً مدينة نينوى عام ٦١٢ ق.م بعد حصار دام ثلاثة أشهر فقط ودخلت الجيوش العازية مدينة نينوى واضرمت فيها النيران ونهبت وسلبت قصورها ومعابدها . واثناء ذلك قامت مصاورة سياسية بين ابن الملك نبوخذنصر وبين الملك الميدي .

وتمكنّت وحدات من الجيش الآشوري من التوجه الى مدينة حران ونصبت عليها آشور - او بالط . احد افراد العائلة المالكة الصغار ملكاً ، وبذلك ظلت الدولة الآشورية قائمة اسماً ومتظرة وصول المساعدات العسكرية المصرية وظل الجيش

الآشوري في حران لمدة سنتين وقامت جموع الميازين والقبائل الحائفة بالهجوم على حران عام ٦١٠ ق. م والتحق بهم الجيش البابلي فانسحب الجيش الآشوري إلى الجنوب الغربي وبعد وصول القوات المصرية حاول الجيش الآشوري الهجوم على حران وأحرز بعض الانتصارات الابتدائية غير أن تقدم الجيش الأنكشاري بقيادة نبوخذنصر أجبر الجيش الآشوري والقوات المصرية على الانسحاب إلى كركميش ووقعت بعد ذلك معركة كبرى وقع خلالها الآلاف من القتلى من كلا الجانحين وكان الانتصار الحاسم فيها إلى القوات البابلية و Herb الجيش المصري ولاحقه الجيش البابلي حتى حدود مصر وكان بأمكانه التوغل داخل مصر لولا اضطرار قائد نبوخذنصر العودة إلى بلاد بابل لسماعه بوفاة الملك.

وهكذا انتهى كيان الآشوريين السياسي واسدلستار على اعظم واقوى امبراطورية عرفها التاريخ التدريم حتى ذلك التاريخ . غير ان الحضارة الآشورية والتأثيرات الحضارية الآشورية ظلت ظاهرة في بلاد آشور والإقليم التي كانت تابعة لها ومنها بلاد بابل . لفترة طويلة .